

جدل التاريخي والديني في رواية "مذنبون لون دمهم في كفي" للحبيب السائح
Historical and Religious Controversy in the Novel " Mudnibon lawno
damihim fi kaffi " by AL-HABIB AL-SAIH

طلحة عبدالباسط^{1*}، بوالعجين قدور²

TALHA Abdelbasst¹, BOULADJINE Kadeur²

¹ جامعة عبدالحفيظ بوالصوف ميلة (الجزائر)، Bassettalha2015@gmail.com

² جامعة عبدالحفيظ بوالصوف ميلة (الجزائر)، bouladjinekadour@gmail.com

النشر: 2020/06/30

القبول: 2020/05/07

الاستلام: 2020/04/07

ملخص:

تستطرق رواية "مذنبون لون دمهم في كفي" مرحلة تاريخية مهمة في مسار الجزائر المعاصر، تقوم الرواية بالحديث عن أحد ضحايا الجماعات الإرهابية الذي وجد نفسه دون عائلة، إذ تعرضت هذه الأخيرة لإبادة شاملة من قبل جماعة "لحول" المتطرفة، فيقرر الشاب أخذ الثأر بنفسه رافضا كل الحلول المقدمة، جسدت الرواية بفعل لعبة التخييل مأساة شعب أو جيل أو صدام مجموعة من الأجيال إذ تناولت أحداث مرحلة متفردة في تاريخ الجزائر المعاصر فكشفت الغطاء عن المسكوت عنه في جدلية الحكم ومعضلة السلطة في علاقة الحاكم بالمحكوم، فاقتحمت حدود هذا السياح وأبرزت عمق الخلاف القائم بين شرائح المجتمع وبينت الصراع الخفي بين التاريخ والتطرف.

الكلمات المفتاحية: التخييل؛ التاريخ؛ الدين؛ الإيديولوجيا؛ رواية مذنبون لون دمهم في كفي.

Abstract:

The novel "Miudnibon lawno damihim fi kaffi" explores an important historical stage in the contemporary path of Algeria. The novel talks about a victim of terrorist groups who found himself without a family, as the latter was subjected to comprehensive annihilation by the extremist group "Lahwel", so he decided The young man took revenge on his own, rejecting all the solutions offered. Because of

* المؤلف المرسل: طلحة عبدالباسط ، الإيميل: Bassettalha2015@gmail.com

the game imagined, the novel embodied the tragedy of a people, a generation, or a clash of a number of generations, as it dealt with the events of a unique stage in the contemporary history of Algeria. The hidden struggle between history and extremism.

key words: The fiction, History, Religion, Ideology, The novel Miudnibon lawno damihim fi kaffi.

مقدمة:

تطرح هذه الدراسة موضوعاً شائكاً، شغل الحياة السياسية والثقافية والفكرية الجزائرية في الفترة الممتدة بين 1992-2000م، وهي زمن الأزمة أو العشرية السوداء.

تبرز رواية (مذنبون لون دمهم في كفي) مرحلة من التاريخ الجزائري، إذ تتمركز الرواية حول مأساة أحد الأشخاص بسبب اغتيال عائلته من طرف جماعة إرهابية، وعلى إثر هذا الفعل يقرر الشاب الثأر لعائلته.

وفي سياق الأحداث تعود الرواية للنش في الماضي، فتتناول ثنائية جدلية قائمة على محور الصراع بين الدين والتاريخ، فالدين الذي يمثل المتطرفون، يرونه أساساً لقيام حلم الدولة الإسلامية الموعودة أو المنتظرة، ويسعون إلى فرض برنامجهم أو مشروعهم عن طريق العنف والاعتقالات، ويرون أنّ السلطة مجموعة من الأصنام التاريخية، وخطر يهدد مشروعهم وبرنامجهم، فيأخذ الصراع أبعاداً خطيرة، كما تعود الرواية للبحث في الجوانب الإجرامية لبعض السلوكات الخاطئة التي ارتكبت في الماضي، يمثلّ الدين مجموعة من المنيبين أو المهمشين الذين لا يملكون أي حياة أو ماضٍ مشرف.

في حين يمثل التاريخ ورثة الشرعية الثورية، وأبناء الشهداء والمجاهدين الذين جندتهم الدولة لمحاربة الإرهاب، ولكل طرف قيم وعوامل مساعدة تمكنه من السيطرة على بعض الجزئيات، كما توجه الرواية نقداً لاذعاً لبعض السلوكات، وتدرس خبايا مرحلة تاريخية، وتقدم العنف معادلاً للنكسات التي أصابت الوطن من خلال محاولة التأسيس له، وربطه بالسلوكيات الفردية، وتقيم علاقة حوارية بين المرجعيات الرئيسية وسياقاتها التاريخية فالخطاب الديني هنا لا يمكن قراءته أو عزله عن سياقه التاريخي بطريقة جدلية، فربما الخلط في المفاهيم هو الذي قاد إلى الأزمة، لكن ما يلاحظ أنّ المتخيل قدّم الأحداث بطرق فنية جميلة جعلت الوقائع المطروحة تعيد طرح مجموعة من الأسئلة، وهذا بواسطة استجواب أو استنطاق سياقين (ديني وتاريخي).

1. بين التاريخ والدين

إذا عدنا للحديث عن التاريخ فهو كما يشير عبد الله العروي: "سرد أحداث الماضي، ومعرفة التغيرات الكونية، كشف وجدان الإنسان بذاته، محاولة معرفة طبيعة علاقاته وغيرها من الدلالات"¹، هو كل جزئيات الفرد؛ إنه تلك المحطات المميزة التي تؤثر في كيان ووجود الإنسان، إنه سجل حافل يُدَوِّن كل صغيرة وكبيرة تتعلق بالحياة بكافة مستوياتها. أمّا الدين فهو تلك النظرة إلى الكون وطريقة حياة محددة بالإيمان بوجود إله أو ألوهية هو شعور بالارتباط بالتعلق بالالتزام تجاه قوى غيبية سائدة ومبجلة ومقدسة²، إنه ذلك الجانب الروحي الذي يجعل الفرد خاضعا بكل قناعة؛ اتجاه مؤثر مجهول لكنه يملك قوة الفاعلية، ويجعل الإنسان مرتبطا بصفة لا شعورية بما هو متعال عن فهمه.

أمّا (فريدريك أنجلز Friedrich Engels) (1820-1895م)، فيجعل الدين بمثابة ذلك "الانعكاس الخيالي في رؤوس الناس لتلك القوى الخارجية التي تتحكم بوجودهم اليومي، هو انعكاس تأخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى فوق أرضية"³؛ أي هو ربط مجريات الطبيعة بقوى خارقة، مما يُنتج تصورا خياليا لكيفية تفسير تلك الخوارق والغاية من ظهورها، وبالتالي إسناد الأمر إلى قوى فاعلة غير إنسانية.

وينقسم معنى الدين إلى قسمين: فهو في المنظور العام "مؤسسة اجتماعية متميزة بوجود ائتلاف من الأفراد المتحدين بأداء بعض العبادات المنتظمة وباعتماد بعض الصيغ والاعتقاد في قيمة مطلقة، لا يمكن وضع شيء آخر في كفة ميزانها، وهو اعتقاد تهدف الجماعة إلى حفظه، به يُنسب الفرد إلى قوة روحية أرفع من الإنسان وهذه ينظر إليها كقوة وحيدة هي الله"⁴، يفهم من هذا التعريف أنّ الدين هو رابطة اجتماعية، تتألف بين أفراد يؤدون مجموعة من الطقوس والشعائر، تمنحهم اطمئنانا نفسيا وروحيا، ترتفع بهم إلى مقام أعلى، ويخضعون لله المسير المقتدر.

أمّا من حيث معناه الخاص الذي يرتبط بالإسلام - وهو غاية هذا العنصر - هو "عنصر" توحيدي وتحديد الإسلام باعتباره يخرج من الفردية والذاتية المحضة إلى مستوى النظام الاجتماعي الذي يوطر الحياة ويحدد اتجاهات الجماعة ويتحكم بسلوكها ولكن هذا الخروج من الإطار الذاتي إلى النظام الاجتماعي، لا يعني الإيديولوجيا التسلطية، بل يعني سحب الروحانية وقيمها الشفافة إلى الأمور الاجتماعية والطبيعية،

وإمداد الفرد بمحفزات داعمة للسلوك الجماعي وتحقيق المصلحة الجماعية كجزء من المصلحة الذاتية أي دمج الذاتي في الاجتماعي⁵، يخرج الدين في منظور الإسلام إلى: التوحيد بوجود إله واحد والمسلم لا يكون إلا في إطار الجماعة، يساعد الدين في بلورة مفاهيم الحرية والعدالة بعيدا عن القهر السلطوي، تندمج المصالح الخاصة في مصلحة عليا، يكون الدين إطارا ومرجعا يمدّ الفرد بالسلوك الحسن، ويساعده على حل مشكلاته النفسية والفكرية.

من هذا المنطلق يمكن الربط بين التاريخ والدين في كونهما متعلقان بحياة الفرد؛ فالأول هو آلة تسجيل لتحركاته وممارساته، والثاني إطار وروح يحفظ تلك الممارسات من الانحراف، لكنهما إن طُرِحَا داخل أي نص أدبي، فإنما يطرحان في إطار علاقة جدلية، تحاول كل تيمة أن تبرز على حساب الأخرى، وبالأخص في رواية (مذنبون لون دمهم في كفي) وهذا من منظور أن الرواية: فن "من فنون الحياة، وصلتها بالحياة متداخلة ومعقدة بسبب أشكال ومظاهر العلاقة بها، فالأديب يستوحي أحيانا كثيرة بعض موضوعاته من الفكر أو الدين أو الفلسفة أو الثقافة أو العادات والأطر الأخلاقية"⁶؛ إذ تحاول الرواية فهم حلقات الصراع داخل المجتمع على مستوى البناء الفكري وتناقش مسألة الوعي في فترة تاريخية لها تأثيرها وانعكاسها في باقي مراحل حياة المجتمع، وتبين بعض المتعارضات التي يُنتجها المُتخيل بفعل قدرة الكاتب على مخاطبة المُحرّمات والمُقدّسات.

2. عنف الإرهاب وسطوة الشرعية التاريخية:

طرحَت الرواية أزمة سياسية اجتماعية، دينية وثقافية متعددة الأوجه وشديدة التعقيد في إطار واقعي ومقنع في تفاصيله، يكشف بعض المواقف والخلفيات التي طواها الزمن، أو أغفلها التاريخ، وإن كانت لعبة المتخيل جد متقنة فإننا نلمس بعض الجوانب الواقعية المرجعية؛ إذ "يظهر بالملاموس أن النمذجة المرجعية نمذجة أساسية لا يمكن الاستغناء عنها أو تخييبها، هذا يعني أن المرجعية النصية للرواية على درجة عالية من الأهمية والتميز، فالمرجعية مهمة لأنها تؤدي وظيفة بنائية للنص الروائي"⁷، في هذه النقطة تطرح الرواية -موضوع الدراسة - تضارب مجموعة من المرجعيات التي تشترك في العنف كوسيط مشترك.

يظهر الجانب المظلم للجماعات الإرهابية من خلال فضح الرواية لأعمالهم الإجرامية، وموقف الآخر غير المنتمي لهذا التيار من هذه الأعمال: "إن كان هناك رب ابتلاني بهذا فإنما ليكلفني أن أظهر عدالته هنا في هذه الدنيا"⁸، هذا الشاب يحاول الرد على هؤلاء بعنف أعظم، لأنهم في نظره مجرد عصابة لا علاقة لها بالدين، لكن هذا الخطاب الديني المتطرف يقابله خطاب تاريخي يحاول فرض هيمنته باعتبار أن التاريخ مرجعية مهمة في بناء الفكر الفردي، تقول الرواية: "ثم تنهد واضعا أخصر رشاشه على ركبته وحذرنا بصوت ثخين، إياكم أن تنسوا أن من أخرجكم من حياة الكلاب، التي كنتم تعيشونها تحت أقدام المحتلين الفرنسيين هم الرجال والنساء وحتى الأطفال وكل الشجعان الذين لم يعودوا في هذه الدنيا"⁹.

هذا المجاهد يحاول فرض خطابه أو مشروعه التاريخي بكل قوة؛ انطلاقا من النقاط التي يمتلكها، فهو يحمل الشرعية الثورية، وله الحق في امتلاك سلاح، وله الحق في فرض رأيه بالقوة، هذا الأمر الذي يدخله في حالة صراع مع الإسلاميين المتطرفين، الذين يتكؤون على إرث ديني وهذا ما تؤيده الرواية قائلة: "فَرَبَّى ذلك أشكال التذمر الأكثر تطرفا وسوَّغ لرفع السلاح في وجه رموز الدولة تعبيراً عن رد فعل دفين تجاه مظاهر ذلك الإذلال المستشرية، ولو كان تحت عباءة الديني"¹⁰.

إنَّ تصرف بعض الرموز التاريخية غير المبرر هو الذي أوجد مساحة للعنف والتطرف، خاصة في ظل انشغال المؤسسات، بمصالح ضيقة تاركة العامة في ضياع، مما أدَّى إلى استغلال الشباب وجره نحو الكارثة، فإن القمع الممارس من ورثة التاريخ (رجال السياسة، العسكر، رجال الثورة) دفع الإرهاب إلى اللجوء إلى بعض النصوص الدينية ومحاولة تأويلها، في مجابهة العنف التاريخي الذي بدوره "يتضمن استعمال القوة والقسوة لتحقيق غرض سياسي، فيكون العنف أداة سياسية بالالتكاء على الماضي التاريخي كما هو عند الأنظمة الشمولية أو الثورية، لحمل طرف معين على تلبية مجموعة من الأغراض"¹¹.

وهنا تطرح الرواية في هذا المقطع، السبب الخفي الذي أوقع الصدام بين الإرهاب والرموز التاريخية للدولة الجزائرية: "لكنه فاجأني لما أضاف: ومن العسكريين ورجال الأمن أيضا بما يحسس الجزائريين دائما أنهم في وطن لم يعد وطنهم، ثم نظر إليّ بنقّة قائلا: أعرفك تضع كلامي في مقامه، فلم أنطق، فشرح لي أن ذلك اكتمل في ذاكرة

الجزائري بما يجعله يظن أنّ خلاصه من إذلاله يستلزم محو أثر الرموز الأمنية وتفكيك أجهزتها لإقامة دولة خالية من المؤسسات القمعية¹² هذه المؤسسات الأمنية ظلت مرتبطة بالبعد التاريخي للثورة، فعلى "إثر استقلال الجزائر وجلاء القوات الفرنسية، فإن الجزائر شكلت حكومة ثورية، وأنشأت جيشا وطنيا ورث جيش التحرير"¹³، من هذا المنطلق رأى المتطرفون أنّ هؤلاء مجموعة من الرموز التاريخية التي وجب محوها؛ إذ أنّها لم تحقق أي شيء للبلاد، فلا عجب أن يتصدى لهم المجاهدون، وأبناء الشهداء وذوي الحقوق، لكن الإرهاب حاول مسح كل ماله علاقة بهذا الجانب.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه: ألا يسعى هؤلاء المحسوبين على التيار الديني لفرض نفس شروط الهيمنة إذا وصلوا إلى السلطة؟ فكما هو معلوم أنّ فكرة التسلط غريزة في الإنسان، وما الحروب وما الإبادة التي قادها هؤلاء. إلا للوصول إلى السلطة أو الحكم؛ وهذا ما تدعمه الرواية: "قائلا لي: مذهل عدد الأطفال الميتين والمصدومين والمولودين بفعل الاغتصاب ومن صرخوا صرخاتهم الأولى في الجبال والمغارات من تزواج أفراد الجماعات غير المقيدين في أي سجل، والمقطوعين عن مظاهر الحياة العادية، فتعجبت له، وكأنّ أعوام حرب تحريرية قاتلة ومدمرة لم تكن كافية، فعّل لي مهموما: لكوننا خلال ثلاثين قرنا لم نعرف سوى الحروب ! فلم تدم الاستراحة سوى ثلاثين عاما، بعد آخر حرب، حتى استأنفنا النقتيل والتذبيح والاغتصاب في أنفسنا ها هي أجيال كاملة تكبر مهزوزة الوجدان بلا أحلام، بلا أجوبة عن أسئلة وجودها لا ينمو فيها غير الحقد، معضلتنا أننا أمة تبدو عاجزة عن إيجاد بديل فكري للعنف لفك أزماتها"¹⁴، يكشف هذا الحوار النسق الحقيقي الذي يحكم الإرهاب، فالدين يغدو قناعا يتستر خلفه هؤلاء، كما يصبح التاريخ قناعا كذلك، فمن يركب مطية الدين يرى أنّ فرض الأوامر الإلهية يكون بكل الطرق المباحة وغيرها، والآخر المخالف للفكرة يرى نفسه حارسا على منظومة القيم، يصبح التاريخ والدين وجهان للسلطة "السلطة الإلهية هي التي تخول لهم هذا، والسلطة المدنية قائمة أساسا على فكرة الزعيم الأوحد، والمنقذ الأعظم والرئيس المخلص، ومبعوث العناية الإلهية والمعلم الملهم فيأمر ويطاع ويعبر عن مصلحة الناس"¹⁵.

تعيد الرواية طرح قضية الدين بين منظورين الأول متعلق بتاريخ الثورة، والآخر بما يحدث في الأزمنة، وفي هذا تقول الرواية: "سأبقى أكذب من زعم أنّ الجزائريين

خاضوا حرب تحريرهم من غير أن يكونوا مشحونين حقدا على جيش اغتصب بلدهم وعفّر شرفهم وأهانهم وأذلهم وأذاقهم ألوان الحقد كلها من أجل حماية مصالح معمرين جشعين وعنصريين لم يكونوا في الأصل سوى ضالين وقطاع طرق وجائعين أرسوا لأسيادهم الساسة من وراء البحار قاعدة بنوا عليها مشروع استئصال شعب آخر من جذوره، فكثيرا ما أدهشني باسترساله الطافح وأوقعني كما غيري تحت شلالات كلامه إن غضب أو تذكر أسباب أحرانه، غير أنه في تلك اللحظة بدا لي على حدود الانهيار لشدة تأثره: ما حييت سأحتقر من حولوا ولد فلة وأمثاله إلى آلات تدمير! ولكني سأظل أحترم أولئك الفتيان الذين رفعوا السلاح في وجه الحكومة مدفوعين بالشعور بالغبن واليأس¹⁶.

يمثل صوت المجاهد في هذا المقطع صيغة تاريخية ترى: أن الظلم والقهر مثلما أخرج جيله في وجه فرنسا، فإنّ هذا الظلم الممارس هو الذي دفع الشباب المتحمس إلى حمل السلاح في وجه الدولة، فقد "وجهت أصابع الاتهام نحو السلطة التي تحولت في نظرهم هي أيضا إلى سلطة كافرة، طاغية يجب أن تزول وتمحى"¹⁷، لكن الدين الذي أطرّ المجاهدين كان دينا غير محرّف مستمد من تعاليم الشريعة السمحة التي تدعو إلى الجهاد ضد العدوان وليس ضد الإخوة.

لأنّ بعض تصرفات السلطة دفعت نحو الإرهاب، وهذا ما تؤيّد الرواية: "أنا لا أعيد اختراع البارود! إقامة المحاكم السرية لمعاقبة المذنبين أمر سار عبر التاريخ، ما الذي يمنعنا من ذلك ما دامت الدولة عاجزة عن العقاب، يجب أن تعلموا أنه لا شيء يحرض على الجريمة ويحث على الفوضى مثل جهاز عدالة ضعيف لا يقمع سوى الضعفاء"¹⁸، هذه الأخطاء استغلها الطرف الجديد، إذ رأى أن النظام مرتد وكافر، وجب محاسبته على كل صغيرة وكبيرة، لذا ركزوا هجماتهم على كل من ينتسب للنظام دون استثناء.

3. صراع التاريخ والتطرف

تعتبر النقاط التي تركتها الشرعية التاريخية محورا مهما في صعود التطرف الديني، وهذا ما تدعمه الرواية: "قبل سبعة أعوام لغط آخر من التجمعات السرية رددته جدرانها المحيطة وذاع عبر مكبرات الصوت في الشوارع وفي أعالي المنارات وعلى أعمدة الكهرباء، وفي الأماكن التي كان البلاغ نشر فيها قبل ساعات، ثم حملته الجموع

الهائية في حناجرها رافعين ما كان يوما رفعه المختصون في الفتنة الكبرى، هاتفين بلسان واحد: لا دولة إلا دولة الإيمان، تسقط دولة الطغيان، فصاح الواقف جنب الخطيب من على المنصة نفسها، وهذا الآن أخونا لحول، فجهر في لهجة المحرضين المتمرسين بصوت قوي ثابت وواخز رافعا يديه نحو المعتصمين، يقول لكم الشيخ الأزرق: عقيدتكم في خطر، فانهضوا إلى الفريضة الغائبة! اليوم، اليوم! لا غدا ولا بعده¹⁹.

الدولة تمثل الجانب المظلم والقائم على العبيثية والتسلط، وبالتالي حاول هؤلاء إلغاء تاريخها من الوجود، وبعث تاريخ جديد قائم على الدين. فالدولة اختارت مرجعيات فكرية مستمدة من الماركسية وبعض النظريات الغربية، مما مثل خروجاً وانحرافاً عن الدين الحقيقي الذي يحتفي به هؤلاء، لكنهم في المقابل استغلوا هذا الدين، فعدا رمزا للقهر والظلم والاستبداد، والتعدي على الآخرين، مما جعلهم يعيدون ممارسة العنف والتجبر في ثوب آخر، وهذا ما أيدته الرواية إذ جاء فيها: "وتفكّمت واحدة من وسط النساء لصاحبتهائنا قائلة، كانت الجماعة ستتنصب في الساحة منصة للجلد والنقطيع يقيمها لهم ولد عيسى النجار ليبدووا به عليها فلا فلة ولا غيرها كانت ستشفع له عندهم"²⁰، هذه الممارسات المستمدة من الدين أُستُغِلَّتْ من خلال "التستر وراءه لتحقيق أغراضهم الشخصية، والوصول باسمه إلى المناصب والمراكز والتمتع بشهوة السلطة، وفرض النفوذ على الآخرين فكانوا أسوأ مثل لرجال الدين"²¹.

هذا العنف الممنهج يجد من يتصدى له، وتمثل شخصية المجاهد "بوركة" ذلك الصوت التاريخي الذي ينظر إلى الأمور من عدة زوايا، فهو رافض لحماقات الساسة، وغير راضٍ بما تفعله آلة الدمار، يصفه الراوي قائلاً: "ركضت ناشراً ذراعي أعترضه هائلاً في جلابته الوبرية وشاشه العسكري الأخضر، موقعا خطواته غاضباً مهدداً فلتتفرجوا على عورات أمهاتكم، فيما كانت الزهرة خرجت مسرعة وحضنت نجاة عائدة بها، فهدأته قائلاً له: تفرقوا، ومددت يدي لأخذ سلاحه فأبعده عني قائلاً لي حانقاً لم يتقبل عليّ يوماً السلاح، ورفعني إلى أعلى بيديه: لا ينفع معهم غير هذا، وببد أراحني عنه مسافة ما وأطلق طلقة ثالثة في الهواء"²²، فالوصف الذي قُدِّمَ للمجاهد (الشاش، الجلابه، السلاح) يمثل تلك المرجعية الثورية الراسخة فهو يرى أنّ الدولة مهددة، ويحاول الرد على سياسة الإرهاب بعنف مماثل، وكأنه ينصب نفسه مدافعاً عن قيم التاريخ والثورة

المجيدة، فقد أوكلت لفئة المجاهدين مهمة المحافظة على خيوط التواصل التي تنظم مسيرة الشعب الجزائري، وفق مبادئ التجديد والإبداع الثوري الذين يعطيان للمناضل قدرة التحلي بالمرونة اللازمة، لتكييف عملية الانتقال إلى دائرة الفعل حسب الظروف والإمكانات؛ التي تتحكم في تشكيل الواقع ونمذجته²³.

هذه المكانة المرموقة تدفع المجاهد إلى أن يخوض حربا شرسة مع كل من تسوّل له نفسه المساس بالأمن والاستقرار، لأنّ الذين حملوا لواء الدفاع عن الأمن في تلك الفترة هم من الأسرة الثورية؛ إذ اعتبروا البلاد ملكية خاصة وجب الدفاع عنها متجاهلين الأوساط الأخرى، وهذا ما تطرحه الرواية، إذ تقول: "عند الأدرّاج المؤدية إلى مقر البلدية، استوقفني بوركبة، سلاحه على كتفه مدلّى إلى أسفل ليعلن إلى فجأة أنّ الناس مثل طقس مدينتهم يتغيرون أربع مرات في اليوم، وبعد درجتين نبهني ممسكا بدراعي، بريق المسؤولية يغري بسلخ الجلد، ثم أضاف لا خصم لي سوى الظلم والفقر والأوساخ، لم أعرف مسؤولا مثله أخضع حساسيته السياسية للمصلحة العامة"²⁴.

هذا الاهتمام الزائد من قبل الدولة بهؤلاء. جعلت الآخر (المتطرف) يسعى إلى محاولة القضاء عليهم، باعتبارهم الفئة التي يتجسد فيها طغيان الدولة وخروجها عن العرف، فكان لزاماً على الإرهاب البدء بهؤلاء تمهيدا للقضاء على رؤوس النظام، فتأثير المجاهدين قوي في الفئات الشعبية، وذلك عن طريق لعبهم على وتر التاريخ والثورة، فلم يسلم المقربون منهم من هذا الدمار، وما الإمام المستهدف إلا مثال لهمجية هؤلاء، إذ يجسد في الرواية صوت الوسطية والاعتدال في الإسلام، والذي لا يستسلم للآراء المغلوطة حول الجهاد ويحاول تحكيم كتاب الله في كل الأمور، وفي هذا تقول الرواية: "ربانا الوالد على أن لا نرى الله فينا إلّا جميلا ! كان يجد فيها معنى آية: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة"²⁵، لكنّ هذه المواقف كان أنصار التطرف يرونها دعما للنظام الفاسد، أو للدولة والسلطة، مما أثار غضبهم وحقدهم غير المبرر. فكانت نهاية مأساوية لهذا الإمام مذبوحا يوم الجمعة وهو يؤدّي الصلاة بالناس، تقول الرواية: "وصرخ آخر وسيُصلّون عليه، فظهر من بينهم طيف الشيخ الهرم ناطقا: من سيصلي عليه غير الإمام اسماعيل الذي اغتاله في المحراب ذبحا"²⁶.

لعلّ ورود اسم "إسماعيل" وطريقة مقتله؛ تحيل إلى ذلك البعد الديني الذي يتناص مع نبي الله إسماعيل - عليه السلام - فالذبح هو إحدى الشعائر المقدسة، والإرهاب في

هذا الموضوع أراد أن يتقرّب إلى الله بطقوسية رمزية متمثلة في الذبح، لكن رغم هذا فإن شخصية الإمام ظلت مثالا للإسلام السّمج المعتدل، هذا الأمر أزعج هؤلاء فحاولوا إراقة دمانه حتى لا يشكل أي ضغط بالنسبة لهم؛ إذ يمكن قراءة موافقه كنوع من علاقة التصادم بين المثقف والسلطة الدينية، فقد قتل بسبب معارضته لهذه السلطة الجديدة، ووقوفه إلى جانب الأمن والاستقرار، ورفضه لجميع المحاولات التي تحاول إخراج الأمور من نصابها.

وممّا يزيد في اعتقاد هذه السلطة الجديدة، هو خروج الإمام عن صفهم في هذا المقطع الذي يتحدث فيه الراوي عين بيت الإمام: "فأشار إلى مساعده بالاقتراب وهمس له: مفارقة رجل دين مثل الإمام على سماحة من قبول التصاوير، فراح المساعد يتأمل معركة حية بين جنود جزائريين في ألّيسة عسكرية خضراء اللون أو في جلابيب متمنطقين عليها بأحزمة الذخيرة وعلى رؤوس بعضهم عمائم بجانب الصخور وعند أقدام الأشجار في حال قتال بأسلحة خفيفة خلفهم مجاهدة بلباس ميداني قائمة بعمليات الإسعاف، وبين قوات عسكرية فرنسية تزحف بأعداد لا تقل عن العشرة مقابل الواحد بأسلحة مختلفة وطائرات تقبل ودبابات عند سفح الجبل تقصف"²⁷.

تمثل هذه اللوحة مدى ارتباط الإمام بالثورة والكفاح المسلح، ويقرأ هذا الموقف من طرف الخصوم على أنه تحدٍ واضح لهم، وبخاصة أنه رفض جميع مساوماتهم حول موقفه الرافض للعنف والاقْتتال الدموي، فصنّف كمعارض أو مقاوم لسلطة الدين المتطرف، فتسعى هذه السلطة إلى محاولة كسره باعتبارها: "تحتكر الآراء عن طريق استعمال القوة، إذ أنّها السلطة الوحيدة التي يحق لها استعمال كل ما يساعدها على إثبات مشروعيّتها، فهي تجمع بين الرضا والاكراه، الشرعية والقوة، قبولها والخوف منها"²⁸، عملت على إخماد هذا الصوت وبالتالي إخماد المعارضة والقضاء على أحد الرموز التاريخية.

يغدو التاريخ المقدم تاريخاً من العنف والدماء وكأنّ الإنسان الجزائري كتب عليه هذا القدر من الشقاء، فهو معادل موضوعي ورمز للقتل والإجرام، هو ضحية وجلاد في الآن ذاته، وهذا ما يطرحه حارس المقبرة عن تاريخ من الإبادة والإجرام والدم والخيبة والدمار والموت: "ذكر ذلك من أثر طيب من سكينّة تحمم فيها كان قبل يوم كان يشعر أنه لا يزال يتنفس نفحها، ثم قام مصلحاً شأنه فنطق ببغداد محرّكا يده مرتبكاً،

عمي عمران، فلم يأبه له مزيجا من أمامه المائدة الصغيرة قائلا في نفسه: لا يمكن أن يكون حدث ما هو أكبر مما شاهدت من صور الروع! سبع سنين وأنت لا تزالين تتسعين كل يوم للمغتالين والمقتولين بالأسلحة البيضاء والنارية والممزقين في التفجيرات، وخرج أمامها على هالة من عزلته المدهشة²⁹.

تمثل الأزمة جنونا منقطع النظير، فحتى المقبرة هنا تقدم كإنسان له مشاعر ووجود وعاطفة، لا تدري ماذا يحدث، الإنسان الجزائري أصبح رمزا للعنف والدمار، والبلاد أضحت تحت سطوة تاريخ من الأحزان والآلام والدمار، فالفرد الجزائري كما يرى الباحث اليمين بن تومي: "إنَّ الجزائري كائن عنيف تَكُونُ في داخله طبقات، والعنف فيه يشبه التراكمات والطبقات المكورة على نفسها تعودُ كل مرة بنفس حماسها القديم"³⁰، فالعنف يأخذ في هذه الرواية سيرورة تاريخية تحاول التأسيس له من خلال ربطه برواسب الثورة التحريرية، فإذا كان الفرد يفخر بأنه سليل المجاهدين والثوار والشهداء، فإن إمكانات العنف تنتقل من جيل إلى جيل، وهذا الجيل الدموي أراد قتل الجيل الذي ورث البلاد وحررها، وفي هذا تتساءل الرواية: "ولكن أن يقتل المجرمون سلالة من حرروا البلاد والجزائريين من الاستعباد؟ فهذا شيء يحزنني"³¹.

والذي يؤكد هذا الطرح، هو حديث الرواية وتركيزها على فئة خاصة حاولت التصدي للإرهاب فشخصية "رشيد" ابن المجاهد الذي اغتالته أيادي الإرهاب خير مثال على تركيز هؤلاء المتطرفين على فئة خاصة، وينجلي هذا أكثر في جوهر الصراع الذي تطرحه الرواية التي تؤكد على أن هؤلاء دخلوا في جدل كبير بين السلطة التاريخية والسلطة الدينية.

يحاول "رشيد" الدفاع عن قيمه ومبادئه من خلال الانتقام، والذي يقابله رفض الحلول التي يقدمها أصدقائه وذووه، حول إمكانية معاقبة هؤلاء من قبل الدولة، تطرح الرواية شخصية "رشيد" في كونه وفيا للنظام، فهو شاب جامعي: "قضى أربع سنوات ثقيلة في جامعة الجزائر، وسنتين أخريين في خدمة عسكرية كابسة كضابط صف، رتبة الجامعين المجندين ثم اختفى خلال شهورها الأخيرة التي أعقبت الاغتيال الذي طال عائلته لتمد غيبته إلى ما بعد انتهاء تجنيده فيظهر فجأة ويقتل لحول ثم ينبش مدفنه، فوفاة على شدة أوجاعها لا تبدو بدرجة العبثية ولا بذروة النزق اللتين أخرجتا إلى

سطح الحياة العامة شخصا مثل لحول جاء من الشارع في لباس السفاهة لينتهي إلى اغتيال إمام مسجد جامع حَيٍّ على خُلُق العلماء³².

هذا الموقف يكشف البعد التاريخي في حياة "رشيد"، وبيرر لجوؤه إلى الانتقام والتأثر، وخاصة أن هذه الرؤيا صادرة عن الراوي الذي يعد كذلك ابن شهيد، فهما يشتركان في نقطة واحدة هي البعد الثوري، أو الإرث التاريخي ومن هنا يمكن استنتاج سبب التبرير والقبول الذي يلقاه "رشيد" من قبل هؤلاء، ومما يزيد في قناعات "رشيد" أو "بوركة" أو الراوي أن طاحونة الإجرام تستهدفهم شخصا، وتلك التصريحات التي أطلقتها الجماعات الإرهابية ضدهم: "قبل ذلك اليوم، لم أكن أحس أن للقيامه رائحة، ولكنني لم أقتنع أبدا أن يكون شخص مثل عليان يملك كفاية سياسية أو سعة معرفية أو علما ربانيا ليعلن بنية مرجرة متحديا، ستهدم أصرام الدولة الطاغية على رؤوس من يرضون بحكمها ويستظلون تحت رايتها! فمن المال نجم، ومن الرجال نحش ما نمكّن به دولة العدل من القيام، كنت أسمع ينطق بلسان من يكلمه من جانب خفي³³.

فالراوي عندما يحلل الأحداث يصل إلى نتيجة مفادها: أن كل الأعمال التي قام بها رفقة "بوركة" و "رشيد" كانت تدرج في حماية الكيان الخاص، حماية المقدسات التاريخية، وحماية الوجود والأرض باعتبارهم ورثة للثورة، ولا ينكر أنه قام بترصد الإرهاب إلى جانب الدولة، ووقف بكل شجاعة في الخطوط الأولى، حيث يصرح بذلك: "كنت أحمل إلى جانبه المسدس الرشاش، الذي سلمني إياه أياما من قبل وسألني عن المسدس الآلي الذي كنت اشتريته من السوق السوداء، فلم أجد له، حينها كانت الدولة تبدو أصيبت بفداحة العجز عن صيانة وجودها وحماية مواطنيها³⁴، لذا يُنصب نفسه مدافعا عن النسق العام الذي ينتمي إليه، وهو الأمر ذاته مع "بوركة"، "فقد لطف بوركة: أنت الذي تقول رفع السلاح في وجه الظلم فروسية نهاية القرن العشرين، ووادني شادا على يدي: وهذه تعلمتها منك، يمكن للرجل أن يخسر كل شيء إلا شرفه³⁵.

هذا الشرف هو الحفاظ على التركة التاريخية، التي تدفعهم في دعم "رشيد" عندما قرر نبش قبر قاتل عائلته، وإطعام جثته للذئب في فعل يتنافى مع كل القيم والمبادئ الإنسانية أو الإسلامية، بل حتى رئيس البلدية المنتمي لنفس التيار يدعم هذا الفعل المؤسف، إذ تقول الرواية: "كنت سأصرح للضابط لخضر أو المفتش حسن بأنني لو

علمت لأسندت ابن صديقنا ورفيقنا سي الطيب³⁶، تلعب هذه الرموز التاريخية دورا ملحوظا في الأزمة، فهذه التصرفات تجعل من الثورة ملكية خاصة فأصبح هؤلاء ممثلين للثورة، مما جعلهم في "عالم مثالي فالبطل في منظور الثورة، دائما يضحى من أجل مصلحة الجميع، كما أنه ينتصر في آخر الأمر على العدو، ويخلصه من الآثام والشرور"³⁷، من هنا نرى أن هؤلاء جنَّبُوا "رشيد" الاعتقال والمطاردة والقتل، لأنه في نظرهم إنسان مُخلص.

غير أن بعض المواقف التي تطرحها الرواية حول الجدل الدائر بين الدولة أو النظام وهذه العصابات الجديدة يحيل إلى أن: فحوى الصراع هي حرب مصالح أو محاولة لفرض السلطة على الآخر، فالأزمة في حقيقتها هي صراع نفوذ بين تيار يريد فرض الحل الديني على الدولة، وهذا الحل قائم على معاقبة كل رموزها الذين في أغلبهم مشكلين من: الجيش أو قادة ثوريين، لينحصر الثالث المتصارع في رجل الدين المتطرف، والسياسي الممسك بزمام الأمور، والعسكري الحافظ للأمن والنظام، وهذا ما يؤكد المجاهد "بوركة" الذي تبرز شخصيته كناقم على الوضع الذي آلت إليه البلاد: "حدثنا بقلب مترع بالنقمة عما تسبب فيه الساسة وقال هم أشنع من القواد وطفح وجهه بحمرة التأثر متعجبا: كيف يخوضون نزاعهم المزمّن على السلطة بدماء الجزائريين"³⁸، ليصبح الضحية الوحيد هو الشعب المقموع، لكن إصرار المجاهد على دعم "رشيد" نابع من موقف الوفاء للإرث التاريخي.

الحالة هي صراع تياران حركهما الساسة جيدا، الأول هو التيار الديني والثاني هو المؤسسة العسكرية لأن "مؤسستي الجيش والدين تتشاركان في إعداد أجهزة دولة نمطية جديدة، هذه الدولة تتعامل إقطاعيا مع الجمهور المقموع وتفرض نفسها عنوة وتشكل له مصدر خوف وقلق"³⁹، فالجماعات المتقنعة بالدين تحاول قدر الإمكان جعل الجمهور أداة طيعة في يدها، من خلال استغلاله وفرض منطقها عليه، ومحاولة تجنيده لصالحها، ويتجلى هذا الأمر في المقطع التالي: "وكان لما فتحهما، فطالعه في رأس الأولى دمغة الجماعة وفي أسفل الثانية ختمهم، عبّ ذعره وقرأهما على عجل، ثم سلمهما إلى الضابط لخصر، إذ وصل، فقال له بصوت صخري: الآن وجبت المواجهة بما يترتب عليها من قدّارة، متذكرا لحظة تداعيه في مكتبه على نبأ اغتيال أفراد دوريته في سوق المدينة الأسبوعي وتحسّر مستطلعا جنبات قاعة الصلاة الخاشعة، قبل أيام عرضت عليه

حماية، فردّ عليّ بأنه لا شيء سيفتح قلبه للخوف من مخلوق، فقال المفتش حسن معضوض القلب بناب الدم، كنت أظن أن رجل الدين مثل الإمام إسماعيل تكفل له الأخلاق الجماعية حصانة الحياة⁴⁰.

تقف السلطة العسكرية في الطرف المقابل لكبح جماح السلطة الدينية ولو بانتهاك بعض الأطر والصيغ المتعارف عليها، فوطأة العنف والدم، لا يُردّع من منظور العسكري إلاّ بدم مثله، وهو سبب ظاهر في طيش بعض تصرفات رجال الأمن تجاه ضحاياهم أو تجاه عائلات الإرهاب، والانتقام لا حل سواه، لا سيما إذا تم إظهار الطرف المضاد على أنه مجموعة من اللصوص والانتهازيين وقطاع الطرق، يقول الراوي عن هذا الأمر: "أحسست بالموت عندما دخل علي ولد فلة في المطبخ وأخبرني أنا وابنتي أنه سيُطهّر المدينة من طغاتها، ثم وضع في يدي دراهم وأوصاني بأن أوصل إلى أمه فلة أمانة لما لمستها خمنت أنها حلي ذهبية"⁴¹، فالدين الذي يدعّون نشره يعريه هذا التصرف، ويكشف قناعه؛ إذ غدا هؤلاء مجرد انتهازيين، لا يختلفون عن الذين يقفون ضدهم.

إلاّ أنّ الدوافع الحقيقية وراء اللجوء إلى العنف والانخراط فيه، قد تغذيها بعض الظروف الاجتماعية القاهرة، فالجمهور البسيط يجد في الدين وسيلة لتحقيق طموحاته، خاصة حين لا تكون للجمهور سياسة اجتماعية واضحة ووطنية ومطبقة لا يبقى أمامه كتفاة عامة سوى التدين، أي تخيل واقع آخر، حلم آخر، بالأحرى: حلم الجنة، الأجمل من دنياه كما يعيشها عبر هذا الحلم تتضوي ظاهرة استشهاديين، كما يصفها محركوها، أو الانتحاريين أو الإرهابيين كما يصفها خصومها، أو الأمل في تحقيق وهم الخلافة الضائعة، واحلال النعيم على الأرض⁴².

4. أرخنة الأزمة

هذه الأجواء الروحية التي يلقاها الشباب من قبل الجماعات تدفعهم إلى الانخراط في هذا المسعى، وهذا ما تصفه الرواية حول أحد العناصر المتطرفة: "قلم تكن سوى أيام قليلة حتى أُلقيّ عليه القبض، في مقهى الساحة نفسه، على من كان ينتظر اتصالاً تأخر عنه، واقتيد مكبلاً إلى زنزانة مهيأة، فاعترف لهما أن اسمه مراد، وأنه طالب جامعي سابق قطع دراسته لأسباب عائلية بعد وفاة والده، وأقرّ لهما أنه كلّف أن ينتظر في المقهى شخصاً يتعرف عليه من كوفية يضعها حول رقبته كان سيسلمه مبلغاً مالياً

من جمع التبرعات وأموال الزكاة، وقال: كل ما فعلته أنني أقمت الحراسة يوم مقتل الإمام، ولم أشارك في الفعل المباشر"⁴³، هذا المقطع يكشف بعض الأبعاد التي أدت بمثل هؤلاء للانضمام إلى الجماعات الإرهابية، فالظروف السيئة دفعت الكثير للالتحاق بالجبال، والنضال لأجل حلم الدولة العادلة، والجنة الموعودة، هذا الفراغ المادي والروحي؛ استغلته دوائر صناعة التطرف جيّدا عن طريق الاغواء بالمال والشهادة، عكس السلطة الحاكمة التي لم تهتم أو ترأف لحال البسطاء، بل ركزت على فئة دون غيرها، وما "أحمد" الراوي الذي يقر بأنه نال كامل الرعاية لأنه ابن شهيد، إلا خير مثال على ذلك.

هذا العنف هو محصلة لصدمات خفية حول النفوذ والسلطة داخل النظام، وهذا ما تطرحه الرواية: "أبي واحد من الذين يعتقدون أن زُمرَ النظام تتعايش كلما توصلت إلى إجماع حول مقاسمة الرّيع بين أجنحتها، وفي حالة الفشل تدخل في اقتتال ضار سري تارة وعلني تارة أخرى، مسخرة الشعارات السياسية والدينية والأخلاقية المبرنقة، حتى لو أدى ذلك بالمجتمع كله إلى الصدام"⁴⁴.

فالمؤسسة النظامية المسيطرة على كل المنافذ، تسعى إلى الدفاع عن مصالحها بشتى الوسائل والطرق، هذا ما يدفع الآخر إلى تسخير الجمهور أو الشعب عن طريق "اختراق فراغه السياسي والروحي، مستفيدا من أميته وحتى من ضلالة ثقافته العامة"⁴⁵، لتجعله في موقف رافض وتستقطبه بواسطة ما تملك من قوة التأثير، والقدرة على الفعل والاقناع، فيتحوّل هذا الجمهور إلى راع ومساند للفكر الديني الخاطيء، ويسهم مساهمة فعلية في توطيد هذه السلطة المضادة للسلطة السائدة.

سعى المد الجارف للإرهاب لإقامة سلطة خاصة به، لأنّ السلطة الرسمية منعت عنهم الوصول إلى الحكم؛ فالقيادة العسكرية عزمت على استئصال الإسلاميين، مما دفع الحركة الإسلامية للاستعداد ماديا ومعنويا للدفاع عن النفس ولو بالقوة؛ إذا تعرض أفرادها لأي محاولة قمع من طرف أجهزة الأمن والجيش"⁴⁶.

هذا الأمر دفع بعض المتطرفين إلى حمل السلاح والجهار بمعارضة النظام، بل جعلوا نصب أعينهم كل ما يرمز للدولة أو يتقاطع معها، في خانة العدو الذي وجبت إزالته والقضاء عليه، يمثل هذه السلطة الجديدة كل من (لحول، عليان، الشيخ الأزرق) وهذا ما ينقله الراوي حول عزم هؤلاء نسف كل شيء في سبيل الوصول إلى الحكم:

"فإني كلما تذكرت ذلك قفز إلى ذهني وجه عليان، لا أجد سواه من حضر الفتيل وأشعله بغوغائه التي كان ظهر عليها، يوم توجه إلى مقدمة المحراب وجلس على كرسي الإمامة ثم حدث فبشر في درسه بزوال النظام والدولة، القائمين على المكس والربا والضرية"⁴⁷، فالأساس الذي يخاطب به هؤلاء هو: الدين باعتباره أفيوناً للشعوب عن طريق استعطافهم ببعض المصطلحات التي تمس صميم الناس البسطاء، الذين ينفادون دون مقاومة تذكر.

استطاع هؤلاء وضع اليد على الجرح أو الوجدان العاطفي الذي مكنهم من رسم إيديولوجيا جديدة، بواسطة تنميط الحياة الثقافية بالمذهب الجديد فأضحى وسيلة، يمكن من خلالها استدراج الوعي الجماهيري نحو غايات سهلة، وفي هذا يقول الراوي: "لكأني ما زلت اسمع رجرجة صوت عليان في الدرس الذي ألقاه في المسجد الجامع: بلباسك تتميز ولباسك تشهر لدينك راية، فليُلبس كل منكم أهله ما يرضي به ربه ! ألا فاحرقوا لباس الجاهلية، فوقع الآباء والإخوان في حرج ضاغط تجاه بناتهم وأخواتهم وأهليهم، فانقطعت الفتيات جميعا عن ممارسة الرياضة في المدارس وأبطلت حصص الرسم والموسيقى"⁴⁸.

هذه المسألة ساعدها منطق اللامبالاة من الدولة التي أغفلت كل هذه الأمور، فاسحة المجال لانتشار مظاهر جديدة اصطبغ بها كل شيء، وفي هذا تقول الرواية: "وفي المدينة، فإن ما كان جلب انتباه الناس على قلق هم أولئك الفتيان العاطلين من الطلبة ومن تجار الرصيف والعربات ومن الحرفيين الصغار ومن ذوي السوابق العدلية أنفسهم وممن كانوا منحرفين، الذين يلبسون قمصانا وأحذية رياضية غالية، كان بعضهم يحيط بلحول أو عليان مشكلين ما يشبه سرايا شرطة أخلاق متحرشين بالنساء والفتيات السافرات فقد جلدوا عاهرة وحرقوا يدا ساحرة برصاصها المذوب وطاردوا مدمني الكحول واقتحموا حانة ومطعم وكسروا ما فيها"⁴⁹، هذه المظاهر ساعد في تفاقمها - كما أشرت سابقا - الحس الديني الذي وجد حضورا كبيرا في الأوساط المهمشة السهلة الانقياد، باعتبار أن هذه العقيدة الجديدة سهلت لهم أمر الحصول على المال، وأعانتهم في ذلك أيضا بعض المظاهر المنافية للسلوك في ذلك الوقت، فالدين يخاطب القلوب والعقول، وتأثير رجل الدين "الخبير في ربطه الدنيوي بالآخروي، ربط المدنس أو العادي (الإنسان) بالمقدس (الله) مما يجعله يتقدس كرجل بوظيفته بعيدا عن السياسة،

هكذا تسربت إلى الجمهور صورة مثالية لهذا المقدس⁵⁰، وهذا ما نجح فيه "عليان" و"الشيخ الأزرق" وأتباعهما، في ظل شغور حقيقي لأي تيار آخر يمكن أن يقف حائلا دون هذه الممارسات.

بل ذهب الأمر أبعد من استقطاب الفئات المهمشة، فاستقطبوا حتى الساسة وذوي النفوذ، وهذا ما تؤيده الرواية في هذا المقطع: "ويوم أمّها في أحد مساجد المدينة الجامع وقد شُهد الوالي على غير العادة يؤديها فشاع أنه يهيئ لانتقاله إلى صف جماعة الدعوة قبل سيطرتهم على الحكم، رفع عقبرته عبر مكبرات الصوت المكثفة التي كان مداها يصل الضواحي وكأنّه ينفخ للرحيل الله ! الله ! نريد دولة كما أرادها الله ! سنقيم دولة الله، سنحكم بما أنزل الله، فلم يبق قلب لم يفرغ لندائه في حرم المسجد وصحنه ومدخله القبلي ولا على رصيفه أو بعيدا حيث تلاشى في الفراغات"⁵¹، وهذا بهدف تشكيل سلطة جديدة تحل محل السلطة الغاصبة، فقد استثمروا بعض الفراغات التي أهملتها الدولة، وحاولوا أن يثبتوا للشعب أنّ سلطتهم تحفظ لهم كرامتهم، وحقوقهم الملهومة التي أهملها المفسدون.

لأنّ الفساد "يمثل في هذا الموقف سوء استخدام السلطة والنفوذ العام بهدف الانحراف عن غايته، وذلك لتحقيق المصالح الخاصة أو الذاتية بطريقة غير شرعية ودون وجه حق"⁵²، لكنّ هذا قاد في نهاية المطاف إلى كارثة إنسانية، فالجنة التي وعد بها هؤلاء تحولت إلى حرب، وتحولت الآمال إلى آلام أتت على الأخضر واليابس، ولم تنفع الشعارات والأقنعة التي رفعها هؤلاء، ولا الجهاد الذي نادوا به، ومِمّا جاء في الرواية عن هذا الأمر: "فيما مشى الأزرق صاعدا إلى المنصة باختيال زعيم كبير فاعتلاها ناشرا ذراعيه كفاتح عظيم مغمورا بالتهليل ثم نطق للبحر البشري فاضطرب لكلماته وارتفعت صيحة من عمق الموج بسؤال حاد: متى أداء الفريضة الغائبة؟ فقطع كلامه وأجاب بابتسامة لائمة: أداء الفرائض لا ينتظر فتاوى، فجهر لحول بمطلع نشيد الجماعة: عليها نحيا، وعليها نموت، فارتفعت الأيادي بالمصاحف مرددة إياها قبل أن يربت الأزرق على كتف عليان قائلا بعزة المنتصرين تركت فيكم هذا وليا عليها"⁵³.

فالسلطة عند هؤلاء استعانت بتأثير النصوص القرآنية من خلال "فرض سيطرتها وإحكام قبضتها على المجتمع والرعية، وهذا ما يجعل من السياسة جحيما"⁵⁴، فكانت السياسة الخاطئة التي انتهجها هؤلاء وأخطاء السلطة عبارة عن بركان دم انفجر ولم

يترك شيئا، وهذا ما يصوره اعتراف أحد الضباط في الرواية: "إذ قال لخضر لي واقفا على مشهد المذبحة: من يقف وراء هذه البشاعة غير ساسة ضامئين إلى الاستلاء على السلطة للسيطرة على الربيع"⁵⁵، فحتى الشعارات المرفوعة لم تكن في نهاية المطاف، إلا لخدمة مصالح ضيقة فلو كان الجميع فعلا مهتما بمصير الشعب لما قادوه إلى حرب دموية، أو حرب قذرة عطلت البلد وأعادته سنوات إلى الوراء.

لكن يبقى مصدر هذا العنف هو ذلك التقاطع الفكري بين عدة أجيال، فالجيل الجديد قد نظر دائما إلى الجيل السابق بنوع من التذمر، وهذا ما أبانت عليه انتفاضة أكتوبر التي تعد تجرية جديدة في الحياة الجزائرية، إذ فضحت هذه الانتفاضة ذلك التفاوت الطبقي بين من يحملون تاريخ الأمة، والجيل الذي سيطر عليه ثلة من أصحاب النفوذ فهذه الانتفاضة "التي غالبا ما جرى تصويرها كحركة تمرد، بل كحركة ثورية، من طرف الصحافة المحركة خيوطها والعديد من الأحزاب السياسية"⁵⁶، هي في حقيقتها تظهر واضح للصراع بين تاريخين.

وهذا ما طرحته الرواية كاشفة حالة الاستياء من التاريخ الثوري الذي أدى إلى هذا الدمار، فالساسة حاولوا استغلال كل شيء للبقاء في قمة المسؤولية: "ثم فجأة ينغز من أصبعه في صدره: دلني أنت على جيفة واحدة منهم أصيب في نفسه أو أهله أو مس في رزق، فباعد وجهه محاذرا أن يتلقى لكمة وحرك شفتيه لن يقول شيئا فقطعه: الساسة هو الذين حولوا حلم الجزائريين إلى خيبة مزمنة وغيروا طبيبتهم إلى حقد ساحق وأنزلوا مشاعرهم إلى درجة الحيوانية، فبزق دفعة واحدة ثم مسح على فمه ونبر بخيبة: أتمنى أن لا أنتهي كلبا، فدار عنه في برودة ساحبا فنجانه قائلا: وهل ترى أنت في هذا البلد فرق بين حياة الإنسان وبين الحيوان"⁵⁷.

أغلب مكونات السلطة رموز تاريخية، فورثة الاستقلال كانوا مجاهدين أو ثوريين عادة ما يقرنون أنفسهم بذلك التاريخ المشع، فجاء الصراع منحصرا بين التطرف والعنف والتاريخ إذ نجد "لحول" المتطرف ابن امرأة والدها خائن أو موالٍ لفرنسا، حيث تصوره الرواية ذلك الإنسان المعتوه: "فَسَكْتُ أتخيل لحول خَلْفَ ذرية وجدت نفسها يوما تمارس مسؤولية على أبناء ضحاياهم وأحفادهم"⁵⁸، لقد اكتسب صفات الإجرام من خلال ما روي له عن ماضي جده، والسوء الذي لحق والدته، فكان لزاما عليه أن يرد على هذه الأنساق المضمرة، وقد وجد الفرصة مواتية زمن الأزمة، فأمة

عانت الأمرين من خلال سيطرة ذكرى والدها الخائن على حياتها، تقول الرواية: "فألحق بها ذلك عطبا نفسيا حادا، وصارت تلقَّبُ ببنت كلابو نسبة إلى كلاب غارسيا كما شاع عنه"⁵⁹، ومن هنا حاول "لحلول" أن يصنع لنفسه مكانا، وينتقم من التاريخ الذي ورثه، ولو بالتطرف فانتهى به المطاف مقتولا من قبل "رشيد"، حتى لمّا نبش قبره تعاطف معه الجميع، بل حاولوا حمايته وكأنَّ التاريخ وقف ضده حتى في أبسط حقوقه في أن ينام في قبر، وكأنَّ الأرض التي دُفِنَ فيها رفضته.

ما يمكن قوله إجمالاً أنَّ الدِّين دخل في جدل مع التاريخ من خلال الشواهد والأمثلة المقدمة، فالدين الذي اعتمد عليه المتطرفون تجاوز كل الحدود والخطوط الحمراء، فقد ألغى زمن الأزمة كل المنجزات التاريخية السابقة. فلا شك أنَّ وطأة ما بعد أكتوبر 1988م كانت ثقيلة إلى درجة كان لا بد أن يحدث معها انكسار في المد الثوري الإيديولوجي للثورة بعد الاستقلال وتغيير في مختلف الرهانات الماضية والمستقبلية، وأنَّ الأزمة طبعت تاريخها وجعلت من بعض المتطرفين رموزا للخوف والإجرام⁶⁰، والعودة إلى ما قدمته الرواية التي جلَّ أبطالها (ابن شهيد، المجاهد، ابن المجاهد، ابنة الخائن، حفيد الخائن) هو دلالة على تعارض بين نمطين في الحياة، نمط يرى الدين الخاطئ رمز للتحرر ولا يمكنه أن يقوم إلا من خلال الثورة والتمرد، ونمط يرى نفسه وريث ثورة وتاريخ وجب الدفاع عنهما إلى أبعد الحدود، كما جسدت الرواية بفعل المتخيل مأساة شعب أو جيل أو صدام مجموعة من الأجيال إذ تناولت "أحداث مرحلة متفردة في تاريخ الجزائر المعاصر فكشفت الغطاء عن المسكوت عنه في جدلية الحكم ومعضلة السلطة في علاقة الحاكم بالمحكوم، فاقتحمت حدود هذا السياج وأبرزت عمق الخلاف القائم بين شرائح المجتمع"⁽⁶¹⁾.

خاتمة:

ختاما يمكن أن نخلص إلى:

- تعتبر الرواية محطة النقاء للتخيل والتاريخ بفضل قدرتها التمثيلية على دمج العناصر المختلفة.
- طرحت رواية "مذنبون لون دمهم في كفي" موضوع الجدل القائم بين الدين والتاريخ في مرحلة حرجية من تاريخ الجزائر المعاصر.

- حاولت الأطراف المتصارعة كسب بعض المشروعية من خلال اتكائها على بعض الروافد؛ فالجماعات المتطرفة اتكأت على الموروث الديني، وعربو التاريخ حاولوا استمالة الأفراد من منطلق الشرعية التاريخية (الثورة) مما أخل البلاد في فوضى كان العنف والاجرام نتيجتها الوحيدة.
- إنَّ هذه الحقائق التي استغلتها الرواية تسعى نحو إبراز وعي جديد بالمرحلة المهمة في جزائر التسعينات.
- هذه المرحلة ظلت مبهمة وظلت أسبابها غير مكشوفة، وقد حاول المتخيل سد بعض فجواتها.
- حاولت الرواية تأسيس وعي جديد للقارئ من خلال محاولة نمذجة الجزئيات المتخيلة، وجعلها تدور في فضاء رحب.
- يسعى هذا الفضاء الروائي إلى استنطاق الواقع، وسرده فنيا بغية الوصول إلى لب الأزمة.
- أثر العنف في مسار الشخصية الجزائرية وكاد أن ينسفها نهائيا بسبب حالة الانشطار والشتات التي تركها في نفسية الأفراد، وبسبب تغير المفاهيم والقيم.
- حاولت الرواية إضافة بعض الأمور التي ظلت مغفلة، وسعت إلى إيجاد أجوبة لأسئلة أنهكها الانتظار.

الهوامش والإحالات:

¹ - عبد الله العروي: ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1988.

ص 09.

² - يُنظر: ياسين بوعلي: الثالث المحرم - دراسات في الدين والجنس والصراع الطبقي -، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط 2، 1978، ص 11.

³ - المرجع نفسه، ص 11.

⁴ - علي عبود المحمداوي وآخرون: فلسفة الدين - مقول المقدس بين الإيديولوجيا واليوتوبيا وسؤال التعددية -، منشورات ضفاف، المغرب، ط1، 2012، ص 11-12.

- ⁵ - علي عبود المحمداوي وآخرون: فلسفة الدين - مقول المقدس بين الإيديولوجيا واليوتوبيا وسؤال التعددية -، منشورات ضفاف، المغرب، ط1، 2012، ص 13.
- ⁶ - محمد الأمين شيخة: "الأدب الجزائري بين خطاب الأزمة ووعي الكتابة"، أعمال الملتقى الثاني: الأدب الجزائري، جامعة الوادي، مطبعة مزوار، الوادي، الجزائر، د. ط، 2009، ص 36.
- ⁷ - عبد الرحمان تمار: مرجعيات بناء النص الروائي، دار ورد للطباعة والنشر، الأردن، ط 1، 2013، ص 60.
- ⁸ - الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، دار الحكمة، الجزائر، ط1، 2008، ص 16.
- ⁹ - المصدر نفسه، ص 22.
- ¹⁰ - المصدر نفسه، ص 47.
- ¹¹ - نبيلة بن يوسف: البعد الاقتصادي للعنف السياسي في الجزائر، سلسلة المواطنة، سطيف، الجزائر، ط 1، 2012، ص 4.
- ¹² - الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، ص 52.
- ¹³ - محمد العربي الزبيري: تاريخ الجزائر المعاصر (1954، 1962م)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط 1، 1989، ص 213.
- ¹⁴ - الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، ص 64.
- ¹⁵ - محمد ساري: محنة الكتابة - دراسات نقدية-، منشورات البرزخ الجزائري، الجزائر، د. ط، 2007، ص 12.
- ¹⁶ - الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، ص 106.
- ¹⁷ - محمد ساري: محنة الكتابة- دراسات نقدية -، ص 63.
- ¹⁸ - الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، ص 107-108.
- ¹⁹ - المصدر نفسه، ص 123.
- ²⁰ - المصدر نفسه، ص 125.
- ²¹ - محمد الرخيلي: وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، مصر، د. ط، 1991، ص 127.
- ²² - الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، ص 132.
- ²³ - يُنظر: محمد العربي الزبيري: تاريخ الجزائر المعاصر (1954-1962)، ص 223.
- ²⁴ - الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، ص 135.
- ²⁵ - المصدر نفسه، ص 174.

- 26- المصدر نفسه، ص 138.
- 27- المصدر نفسه، ص 174.
- 28- حسين عبد الحميد أحمد رشوان: في القوة والسلطة والنفوذ - دراسة في علم الاجتماع السياسي-، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، د. ط، 2012، ص 74.
- 29- الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، ص 150.
- 30- اليمين بن تومي: إمكانات النهضة الجزائرية، سلسلة المواطنة، سطيف، الجزائر، د.ط، 2012، ص 14.
- 31- الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، ص 150.
- 32- المصدر نفسه، ص 187.
- 33- المصدر نفسه، ص 192.
- 34- المصدر نفسه، ص 193.
- 35- المصدر نفسه، ص 195.
- 36- المصدر نفسه، ص 199.
- 37- علال سنقوقة: المتخيل والسلطة- علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية -، رابطة كتاب الاختلاف، الجزائر، ط1، 2003، ص 283.
- 38- الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، ص 202.
- 39- خليل أحمد خليل: سوسيولوجيا الجمهور السياسي والديني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2005، ص 46.
- 40- الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، ص 220.
- 41- المصدر نفسه، ص 224.
- 42- يُنظر: خليل أحمد خليل: سوسيولوجيا الجمهور السياسي والديني، ص 331.
- 43- الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، ص 230.
- 44- المصدر نفسه، ص 258.
- 45- خليل أحمد خليل: سوسيولوجيا الجمهور السياسي والديني، ص 331.
- 46- يُنظر: أحمد شوشان: الأزمة الجزائرية - شاهد من قلب الحدث -، دب، د.ط، د. ت، ص 16.
- 47- الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، ص 188.
- 48- المصدر نفسه، ص 190.
- 49- المصدر نفسه، ص 191.

- 50- خليل أحمد خليل: سوسيولوجيا الجمهور السياسي والديني، ص 10.
- 51- الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، ص 192.
- 52- الشريف حبيلة: الرواية والعنف - دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة -، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط 1، 2010، ص 35.
- 53- الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، ص 193.
- 54- ريجيس دوبرييه: نقد العقل السياسي، تر: عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط 1، 1986، ص 56.
- 55- الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، ص 58.
- 56- عبد الحميد براهيم: في أصل المأساة الجزائرية (1958 - 1999م)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 2001، ص 188.
- 57- الحبيب السائح: مذنبون لون دمهم في كفي، ص 21.
- 58- المصدر نفسه، ص 56.
- 59- المصدر نفسه، ص 83.
- 60- يُنظر: عبد الوهاب بوشليحة: "الذاكرة المنقطعة في رواية مذنبون لون دمهم في كفي للحبيب السائح"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، ع 30، 2012، ص 207.
- 61- كوارى مبروك: "الواقع وتجلياته في البنية السردية لرواية مذنبون لون دمهم في كفي للحبيب السائح"، حوليات جامعة بشار، الجزائر، ع 11، 2001، ص 04.